

"الوطن في أدب المهجر"

الدكتور سهيل بشروني

(أوردت جريدة "الأهرام الدولي" القاهرية في عددها الصادر بتاريخ ٢٠٠١/٤/١٠ الخبر التالي عن ندوة "مركز الحوار العربي": "الوطن في أدب المهجر" التي جرت في ٧ آذار/مارس ٢٠٠١، وذلك نقلاً عن مراسلها في واشنطن) وقد جاء في الخبر:

"حين يصبح الحب حب الوطن، ويُقهر شعب ويجوع ويُعذب ويُشرد، ويظلّ يقاوم ويرفض المساومة، ويصرّ على حقه في الحياة والحرية، وحين أعطت بريطانيا فلسطين لليهود حدث خطأ في المعادلة الدولية التي أخذت مستقبل شعب يموت حباً في أرضه، وأعطته لماضي شعوب غازية من أطراف الدنيا، لأنّ العطاء النابع من غير حب يظل مزعزاعاً تنقصه مدارك الحق، لكن جيروت الحب سيظلّ أقوى من أي شيء، فالتشعب الذي يموت حباً من أجل الوطن سيظل صوتاً صارخاً في ضمير الإنسانية وسيظلّ رمزاً لما تحمله قصائد الشعراء وآهات المغنين من عميق الحب".

بهذه العبارات قدّمت السيدة ناهدة فضلي الدجاني الشاعرة والإذاعية التقديرية الدكتور سهيل بشروني، أستاذ كرسي دراسات جبران خليل جبران للأدب في جامعة ميريلاند، الذي انتقل طيلة أربعين عاماً بموضوع شعراء المهجر، للحدث عن، وتقويم، أدب حب الوطن في أعمال شعراء المهجر في الأمسية التي استضافها مركز الحوار العربي بالعاصمة الأمريكية.

أشار الدكتور بشروني في بداية حديثه إلى أنّ موضوع الوطن في الأدب العربي القديم كما نفهمه اليوم يختلف عن فهمنا له في السابق، لأنّ العرب الأول كانوا ينتقلون من مكان إلى آخر دون تملكهم الأرض. فعلى الرغم من حرية امتلاك الأرض آنذاك، فإنّ العربي كان دائم العودة إلى دياره، لأنّ علاقة الحب بالديار والوطن هي علاقة عميقة لها أصول وجذور.

ويإطلالة سريعة على حب الوطن في الإنتاج الأدبي عند شعراء المهجر أو أعضاء الرابطة القلمية، التي ضمت في صفوفها جبران خليل جبران ورشيد أيوب ونسيب عريضة والياس عطا الله وآخرين بالإضافة إلى أمين الريحاني الذي أتاحت له الهجرة أن يلتزم خط الرابطة أدبياً لا عضوياً، نجد أنّ إنتاجها استهدف مختلف أوجه الحياة والطبيعة وناقش معظم مشكلات الإنسان الظاهرة والباطنة، القريبة والبعيدة.

ولدى الشاعر إيمان قاطع بأنّ للشعر وطناً، والوطن بالنسبة للشاعر بمنزلة موطن قدم ليتمكّن من القفز إلى العلياء، كما يشرح الدكتور سهيل، لأنّ الشاعر العظيم في نهاية الأمر هو ملك للإنسانية سواء أكان أبا العلاء المعري أو شكسبير، فلا يمكن لشعب من شعوب العالم أن يزعم ملكيته لهما، لأنّ أعمال الشاعر العظيم تصل إلى أي جمهور مهما كانت ثقافته أو الحضارة التي ينتمي إليها حتى وإن لم يتحدث لغته أو يؤمن بمذهب الشاعر نفسه.

والقاسم الجامع في حبّ الوطن بين أدياء وشعراء المهجر هو النزعة الرومانسية الواقعية في أدب هادف تفكيراً وتعبيراً لخلق أدب حر قوي يعنى بالمعالي والأفكار الكبيرة ولا يتقيد بالسفاسف التي تكبل أجنته دون التحليق والسمو، وتمجيد الإنسان وحضارته. فالشعر المهجري في مجموعه، كما يشرح الدكتور بشروني، يعطينا فكرة عامة عن إنتاجهم الفني ويكشف عن القيم الأدبية، ويبين جانباً من محاولاتهم لمعالجة أدقّ المشكلات الروحية والنفسية للإنسان العربي في العصر الحديث بوجه عام. وتلمس في الإنتاج المهجري والشعري والنثري اعتقاداً راسخاً بأنّ فن وأدب الشاعر لا يخضع

لأي مكان مهما بعد، سوى القدوة الخلاقة العظيمة الباعثة على الحياة والجمال، تلك القوة المستمدة من عند الله عز وجل. وأشار الدكتور بشروني إلى قول الشاعر أبي تمام "ولولا خلال سنها الشعر ما درى بناء العلام من أين تؤتى المكارم".

وعكست الآثار الأدبية للحركة المهجرية إيمانها بالقيم والصفات الإنسانية الخالدة والفنية الجمالية والتقاليد التي تعطي الحياة معانيها وقيمها، وتمجيداً للخيال الفطري الذي لم تلوثه المادية والمدنية الصناعية الحديثة، الذي يتصل بالأرض الطيبة والفلاحين وأهل القرى من مواطنيهم وثرى الوطن الحبيب، على عكس حضارة اليوم المادية التي تسعى إلى هدم كل أنواع الطقوس والمراسيم ذات المدلولات والمعاني المهمة التي تعكس ترفههم عن كل مبتذل ورخيص، وسخطهم الشديد على كل ما تخرجه عقول السوقة للنيل من العقل وطهارته، الذي يجب ألا تندسه الدعوات المغرضة التي تبثها أبقاق الصحافة والسياسة لأنها دعوات مبتذلة هدفها إهانة الفكر واستعباد العقل الإنساني وتكبيد حرية التفكير والاختيار، على حد تعبير الدكتور بشروني.

ولعل أهم ما يخرج به قارئ شعر المهجريين، إدراكهم العميق لإيمانهم بالحياة وقدسيتها ونبلها، وأيضاً إحساسهم المرهف بتنوع تجاربها وتأكيدهم لنا أننا نخلق من حياتنا فناً جميلاً إن كنا على استعداد لأن نمنحها خيالنا وقلوبنا بكل إخلاص منزهين عن الأغراض الدنيوية التافهة.

وعلى الرغم من اقتناع جبران ونعيمة والريحاني بضرورة التحدث باللغة الإنجليزية لإيصال فكرهم إلى الغرب، فإنهم أدركوا في الوقت ذاته أن لغة القرآن الكريم هي الجامعة بينهم على الرغم من أنهم كانوا مسيحيين، وخرجت رسالة النبي لجبران باختصار وبإيمان عميق بالحياة الشاملة وقدرتها على شفاء الإنسانية من أمراضها، واعتقاد راسخ بمبدأ وحدة الوجود ووحدة الأديان ومحبة الرحمن.

يقول الدكتور بشروني إن جبران اعتبر كل شيء في هذا الوجود جسراً إلى المحبة، وتتبلور رسالة جبران في الإيمان والأمل والمحبة وتعود متألفة رنانة فيقف كتاب "النبي" في كفة الميزان الراجحة، بينما يقف فرويد وماركس وداروين والشعراء الضائعون والبهسطاء الحائرون والمتمنعون في الكفة الأخرى، فيقول في "النبي": إن شئتم أن تعرفوا ربكم فلا تعنوا بحل الأغزاز، بل تأملوا ما حولكم تجدوه لاعباً مع أولادكم، وارفعوا أنظاركم في الفضاء الواسع تبصروه يمشي في السحاب ويبسط ذراعيه في البرق وينزل إلى الأرض مع الأمطار .. تأملوا جيداً تروا ربكم بينسم في ثغور الأزهار ثم ينهض ويحرك يديه بالأشجار. ويمتلئ كتاب "النبي" بأصداء مباركة من الكتاب المقدس والقرآن الكريم. ولم يكن عرضاً أن يختار جبران ونعيمة الحديث الشريف القائل "ولله كنوز تحت العرش مفاتيحها ألسنة الشعراء" شعراً للرابطة القلمية في المهجر قبل نحو سبعين عاماً، فقد كانوا مؤمنين بأن خلاص العالم وصلاح المجتمع العربي يكمن في اتحاد روعي يوحد القلوب قبل الحدود وقيل الجيوب، وأنه لا يمكن لأحد أن يحب العالم إن لم تكن محبة وطنه تملأ قلبه. واختتم الدكتور بشروني حديثه قائلاً إن شعراء المهجر أدركوا أن حب الوطن رسالة سماوية لا يمكن أن تكون حكراً على أحد بعينه.